العمارة خلال قرن في شبه الجزيرة العربية

د. أشرف سلامة

يقدّم المقال تفسيرًا موضعيًا ويسلّط الضوء على قضايا الهوية والتقليد والحداثة من خلال تحليل نقديٍّ لعددٍ من الأصوات التي تمثّل بعض الأعمال المعمارية في شبه الجزيرة العربية. وطبقًا لدراسة بعض المشروعات التي ظهرت في القرن الممتد بين العامين ١٩١٤ و٢٠١٤، سيتمّ مناقشة تلك المشروعات عن طريق تصنيف المذاهب المعمارية المختلفة بحسب عصورٍ اقتصاديةٍ ثلاثة: ما قبل النفط، والنفط، وما بعد النفط. وتبيّن هذه الدراسة الصراع المستمر لاستيعاب الحداثة وبناء الهوية، وتختتم بأسئلةٍ تطرح التحدّيات التي تواجه العمارة والتطوير المستقبلي في المنطقة.

أطرٌ معرفية لفهم المذاهب المعمارية

يمكن اعتماد عدّة مقارباتٍ لمناقشة تطوّر المذاهب المعمارية في شبه الجزيرة. ويكمن إحداها في تصوير عمارتها ضمن إطار تأثير السياسات الجغرافية – الثقافية في المنطقة ومزيج المؤثّرات التي تتمتّع به شبه الجزيرة، ومنها المتوسّطية والشرق أوسطيّة والعربيّة والإسلاميّة. وهذه المذاهب تمثل تركيباتٌ تخدم الأهداف السياسية والأيديولوجية، بيد أنها مكسبٌ معرفيٌّ يكشف تساؤلاتٍ في الهويّة وفي تشارك المعاني العميقة على مستويي الثقافة والوجود الإنساني. وكوّن الموقع الثقافي والجغرافي – السياسي الفريد لشبه الجزيرة، مع الوضع العالمي المعاصر، أرضًا خصبةً للتجارب المعمارية، فتصاعد عددٌ هامٌّ من الأصوات طوال فترةٍ من عدّة عقودٍ بحثًا عن الهوية والمعنى. وتكمن مقاربةٌ أخرى في تقصّي الأحداث الاجتماعية- السياسية والاجتماعية- الاقتصادية، ودراسة تأثيرها على تطوّر العمارة في منطقةٍ بطور النمو، وتحديد أهمية هذه الأحداث في بعض المشاريع وتعابيرها. وقد تكون المقاربة الثالثة دراسةً لتأثير التبادلات الناتجة عن حال العالم وظهور مجتمعٍ عالميٍّ متّصل، وبحثًا في تأثير هذه التبدّلات على العمارة وعلى النماذج المحلّية في مدنٍ معيّنة.

بما أن هذا بحثٌ طوليٌّ يمتدّ على مدى القرن ما بين العامين ١٩١٤ و٢٠١٤، سأعتمد مقاربةً رابعةً تدمج المقاربات السابقة الثلاث وتمثّل عمارة المنطقة على نحو أفضل، وهي تحليل العمارة في فترة ما قبل النفط، وتحليل تأثير إنتاج النفط عليها، والانحسار المتوقّع لمخزون النفط والغاز الطبيعي مع تناقص الاعتماد عليهما كمصادرٍ للطاقة، وهو أمرٌ مثيرٌ للقلق وله عواقب على اقتصادات ومجتمعات المنطقة. وهذه المقاربة أقلّ صلة بعُمان واليمن، لكنّها تنطبق بصورةٍ واضحةٍ على البحرين والكويت وقطر والمملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتّحدة.

عمارة ما قبل النفط:
تأثير الصحراء والتقليد القبَليّ من العام ١٩١٤حتى الثلاثينات

أزعم أن المناخ الصحراوي والتقليد القبَليّ مكوّنان أساسيّان في سياق مناقشةِ العمارة ومحيطها في عصر ما قبل النفط. ومع هذا، أثّرت أحداثٌ هامّةٌ أخرى على العمارة وعلى تكوين التجمّعات السكّانيّة، على سبيل المثال، وعد بريطانيا وفرنسا في العام ١٩١٤ بتأمين استقلال شبه الجزيرة العربية وتوحيدها في حال هزيمة الإمبراطورية العثمانية. فكان للوعي القومي الناتج عن ذلك عواقب طويلة الأمد على التمدّن في شبه الجزيرة. وفي العام ١٩١٨، أدّى زوال السيطرة العثمانية على شبه الجزيرة إلى تكوين أنساق بلديّةٍ جديدةٍ في المدن مثل جدّة، وقد أثّر هذا تأثيرًا هامًّا على التطوّر المدينيّ. وتزامن هذا الحدث مع بدء التجارة العالمية للّؤلؤ المستنبت في اليابان سنة ١٩٢١، ممّا أدّى إلى زوال حرفة صيد اللؤلؤ على ساحل الخليج. وأدّى ذلك إلى انهيارٍ اقتصاديٍّ نشأت عنه أنساق اجتماعية – اقتصادية جديدة وأفضى ذلك إلى عودة العديد من عائلات التجّار المهاجرين الهنود والإيرانيين إلى بلادهم. وتسبّبت مغادرة هؤلاء بخسارة تقنياتٍ بنائيةٍ معيّنةٍ وبتقلّص التجمّعات السكّانيّة في الثلاثينات. وعلى الرغم من ذلك، أنشأت الكويت أول شبكة كهرباء في شبه الجزيرة في سنة ١٩٢٣، وزوّدت قصر السيف وتجمّعاتٍ أخرى بالكهرباء.

وساهمت الظروف المناخيّة الخاصّة في شبه الجزيرة العربية بجعلها من المناطق الأقل سكانًا وملاءمةً للعيش في العالم. وكانت الانتماءات القبَليّة والبنية العائلية عاملين أساسيين للبقاء. وساعدت شبكة العلاقات الاجتماعيّة وعلاقات القرابة الضعفاءَ على البقاء، وشكّلت الهيكلية التي يترأسها قائدٌ أو شيخٌ تنظيمًا فعّالًا في حفظ وتعزيز المصالح العامة. وحدّد حجم وثروة القبيلة مساحة الأرض الواقعة تحت سيطرتها وحكمها. ونتيجةً للصراع الدائم من أجل البقاء على قيد الحياة في بيئةٍ قاسية، وقعت العديد من النزاعات القبَليّة في مسار تاريخ شبه الجزيرة العربية، فأدّت الحاجة للحماية والدعم إلى تأسيس تحالفاتٍ قبَليّة ذات هويةٍ عشائريةٍ وعائلية متينة.

من جيلٍ إلى آخر، نقلت القبائل المعرفة التي اكتسبتها في بناء التجمّعات السكنيّة والبيوت الملائمة للمحدّدات البيئيّة. وأبراج الرياح هي مثلٌ على ذلك، إذ أنّها تشكّل ميّزة معماريّة تقليدية وعمليّة، صُمّمت للحفاظ على البرودة المطلوبة في المساكن، وأتى بهذا الابتكار التجّار والبنّاؤون والحرفيّون الفرس الذين استقرّوا في مختلف الموانئ والنجوع على ساحل الخليج.

تطلّبت العقيدة الإسلامية قواعد ومبادئ صارمةً في البناء من أجل الفصل بين الجنسين ولتأمين الخصوصية المناسبة، التزامًا بتعاليم الدين. وقد حافظت الممارسات البنائية المُتّبعة على الخصوصية، وذلك من خلال تحديد الارتفاع الأدنى للبناء وإنشاء المداخل المنعطفة، وهذه الميّزات حالت دون رؤية المارّة داخل المنزل. وقد مثّل المسجد في هذه المجتمعات، المساحة العامة الأكثر أهميةً للسكّان وللمناسبات العامة، فضلًا عن دوره كمركزٍ دينيّ. وشاع استخدامه كمحكمةٍ لتسوية النزاعات وتحقيق العدالة، أو كمدرسةٍ دينية، خاصةً في التجمّعات السكّانيّة الصغرى. وحوى الشكل المكعّب البسيط للمسجد فناءً داخليًّا، ولاصقته ساحةً خارجية. وفي الواقع، كان حجم المسجد ووسع فنائه انعكاسًا لعدد سكّان البلدة في الواحة أو التجمّع الساحلي.

اتّسم التجمّع النموذجي في فترة ما قبل النفط بنواةٍ تألّفت عمومًا من جامعٍ ومحكمةٍ ومنزل الحاكم. وامتد السوق على طول الطرق المؤدّية إلى النواة، وتوجّب أن يتبع عرضها جملَين محمّلين بالأغراض، وظلّلت أسقف المباني المجاورة السوقَ وأوته. واتّسم التجمّع بظاهرة الفصل ما بين الحياة العامة والخاصة، ونالت المساكن والمأوى الخاصة المساحة الأكبر من الأراضي. ووصلت الأزقّة الصغيرة ما بين الطرق الرئيسة والمنازل الخاصّة بسكّان الواحة، على أن تعادل هذه الطرق الضيّقة، والتي تشبه المتاهة، عرض جملٍ محمّلٍ واحد، فيما حدّد ارتفاعه العلوّ الأدنى لأسوار الفناءات المجاورة. وكان لضيق الطرق ولصغر المساحات المحصورة بين الأبنية غرضان أساسيان هما: تكثيف استثمار أراضي التجمّع السكّاني، من جهة، وتأمين التبريد والظلال والفَيء للممرّات والمنازل الواقعة على طولها، من جهة أخرى. وبالإضافة إلى هذين الغرضين الوظيفيين، عزّزت شبكة الأزقّة والطرق الفرعية الطابع الخصوصي للأحياء التي تُعرف بالفريج. ويمكن اعتبارها خليّات مدينيّة، إذ أنّها تشكّلت حول شبكة من الطرق الفرعيّة المتشعّبة التي انتهت بتنسيق فراغي لمنازل الأقارب والعشائر المتعارفة. وتفصّلت التجمّعات على نحو صارم بحسب الفروقات والانتماءات القبليّة والعائليّة. واستخدمت العائلات المجالس للاجتماع ومناقشة الأمور الدينيّة والاجتماعيّة، أو للمناسبات العامة.

كانت العمارة متجانسةً إجمالًا بسبب تطبيق قواعد البناء المشتركة واستخدام المواد والتقنيات نفسها؛ فأدّى ذلك إلى ظهور نماذج تجمّعات عمرانيّة تحاكي بعضها بعضًا، مع اختلافات بسيطة. وجاءت الاختلافات في النماذج جرّاء الخصائص الفريدة للأمكنة المحدّدة. وبالإضافة إلى الدار التقليدي ذي الفناء، الذي يمثّل النموذج السكني الأكثر انتشارًا، أُنشئت المباني المكعّبة البسيطة في التجمّعات الريفية على نحو مكثّف. وكانت ارتفاعات المنازل موحّدةً ومحدّدةً بطابقين. وبنى البدو منازل مؤقّتةً بطابقٍ واحدٍ على قِطَعٍ من الأرض مطوّقةٍ بسياجٍ أو جدران، وواقعةٍ في مشارف التجمّعات. والبيوت ذات الفناءات والأسطح المستوية لم تؤمّن مساحاتٍ مفتوحةً للحياة العائلية الخاصة فحسب، بل زوّدت المنازل بالتهوية والإضاءة المناسبتين في هذه التجمّعات العمرانيّة المتراصّة. وكانت الأسطح المستوية مساحات خارجية قد تستخدمها العائلات للطبخ فيها وكذلك للنوم في أشهر الصيف الحارة. وكان للطابق الأرضي شبابيك قليلة للحفاظ على الخصوصيّة، كما إنّه استُخدم كمخزنٍ ومجلسٍ خصوصيٍّ لاستقبال الزوّار الذكور. وفي بعض التجمّعات، كان من المعتاد أن يمتدّ الطابق الأول فوق الشارع ليتّصل بالمنزل المقابل. وسُمّيت غرفة العبور هذه بالسّباط، وألحقت المنزل بمساحةٍ إضافيةٍ، كما أنّها وفّرت للطرق مزيدًا من الأفياء.

وغالبًا ما ساهمت مواد البناء المتوفّرة في المحيط المحلّي بتحديد الشكل المعماري. فعلى سبيل المثال، طالما استُخدم الحجر المرجاني والجبس الحاضرين بوفرةٍ في بناء الجدران، فضلًا عن الطوب الأخضر. لكن العائلات الفقيرة قطنت في الغالب أكواخ الباراستي، وهي منشآتٌ بسيطةٌ مبنيةٌ من سعف النخيل. واستُخدم الطين المتوفّر بالأراضي الداخلية في الوديان أو ضفاف مجاري الأنهار الجافّة، كمادةٍ أوليةٍ لبناء الجدران والأسقف التي استندت على جسورٍ من جذوع النخل. ولم يكن الطين مادةً محليةً فائضةً فحسب، بل ساهم في تلطيف الأجواء الداخليّة في الأبنية بسبب قدرته الطبيعية على عزل الحرارة وامتصاص الرطوبة. وساهمت النوافذ المستطيلة والرفيعة الواقعة في أسفل الجدران وأعلاها، في تحريك الهواء وتجديده وفي تخفيض الحرارة الداخلية. واكتمل نظام التهوية الطبيعية مع ابتكار أبراج الرياح؛ وكانت هذه البناءات الوظيفية ترتفع لنحو خمسة عشر مترًا، وكان فيها تجويفان منفصلان: أحدهما لالتقاط الرياح، والآخر لإطلاقها. ومع أن التصميم المعماري اتّسم أساسًا بهذه الميّزاتِ المتلائمة مع الظروف المناخية، فقد شاع استخدام العناصر التزيينية أيضًا، كالشبابيك الخشبية والأسقف المزخرفة. وربّما تختلف هذه العناصر بين منطقةٍ وأخرى، إلّا أنّها تتجانس ضمن التجمّع الواحد.